القوة الإنجازيّة للخبر في قصيدة الوعي السِّياسيّ الجاهليّة

"دراسة وفق نظريّة الأفعال الكلاميّة"

د.خديجة محمّد أديب ألِف

(الإيداع: 9 تشرين الأول 2024، القبول : 30 كانون الأول 2024)

الملخّص :

يدرس البحث قصيدة الوعي السّياسيّ الجاهليّة الّتي تُفصح عن عمق الانتماء القبليّ عند الشّاعر الجاهليّ، ويستثمر مفهومَ الفعل الكلاميّ في قراءة مضامين قصيدة الوعي السّياسيّ الجاهليّة، ومن ثمّ يقدّم نظرةً في مكانة الشّاعر الجاهليّ، ويثبت مفهوم الوعي السّياسيّ، ويوضّح مفهوم الفعل الكلاميّ في الدّرسين اللّسانيّ الغربيّ والبلاغيّ العربيّ، ويفصّل القول في القوة الإنجازيّة للإخباريّات كما وردَتْ في مضامين قصيدة الوعي السّياسيّ الجاهليّة. وتوسّل البحث في سبيل بلوغ غايته بالمنهج الأسلوبيّ في دراسة مضامين قصيدة الوعي السّياسيّ الجاهليّة وفق نظرية أفعال الكلام، ولم يستغنِ عن المنهج التّاريخيّ في سبيل فهم السّياق العام الّذي وجّه به الشّاعر رسالته السّياسيّة شعريّاً إلى قبيلته. وأثبت البحث أنّ التّوجيه السّياسيّ غرضٌ شعريٌّ، دافعُه الرّئيسُ حرصُ الشّاعر على وجود القبيلة والحفاظ على كينونتها وتدبير أمورها وإرشادها إلى السّبل الّتي تجنّبها المخاطر المُحدِقة بها، تُثبت مضامينُه دورَ الشّاعر التّوعويّ في القبيلة، وتُبرز الوجدانَ الّذي بعث الشّاعر إلى طرقِ معنى التّوجيه السّياسيّ في قصيده. ولا يخفى على البحث أنّ معظم مضامين قصيدة الوعي السّياسيّ الجاهليّة (التّبليغ السّياسيّ، وصف حال السّبايا بعد الغزو، مقارنة حال القوم بحال العدو) لا تصف واقعاً ولا توصف بالصّدق أو الكذب إلّا أنّها تؤدّي فعلاً. وتتجلّى قوة الفعل للخبر في التّغيير وتدارك الأمر قبل وقوعه أكثر ممّا ترمي إلى الإنباء عن وقوع الغزو والإخبار عن مآلاته.

الكلمات المفتاحيّة:وعي سياسيّ_ قصيدة جاهليّة_ فعل كلاميّ_ منجز كلاميّ_ فعل إنجازيّ_ فعل تأثيريّ.

مدرّس – قسم اللّغة العربيّة – كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة- جامعة حماة

The achievement power of the predicate in The Pre- Islamic speech political conscience poem "a study of speech Acts Theory"

Dr. khadega Mohammed Adeb Alef*

(Received: 9 October 2024, Accepted: 30 December 2024)

Abstract:

The research studies the pre-Islamic political awareness poem which divulges the depth of the tribal affiliation of the pre-Islamic poet. It also invests speech act concept in explaining the content of pre-Islamic political awareness poem. Then, it provides a view of the status of the pre-Islamic poet, proves the political awareness concept and explains speech acts in Western linguistic and Arabic rhetoric studies. It elaborates on the performance of constatives in the content of pre-Islamic awareness poem. To achieve its purpose, the research used the stylistic approach to study the content of the pre-Islamic political poem based on the Speech Acts Theory. The research adopted the historical theory to comprehend the general context in which the poet poetically conveyed his political message to his tribe. It proved that political guidance is a poetic, and its main motive is the poet's interest in the existence of the tribe, preserving its existent, managing its affairs and directing it to avoid dangers. The research demonstrates the awareness-raising role of the poet in the tribe, and accentuates the poet's consciousness which prompted /encouraged/urged the poet to tackle the meaning of political guidance in his poetry. The research states that most of the topics of pre-Islamic political awareness poem (i.e political reporting, describing the condition of female captives after invasion, comparing the status of the tribe to that of the enemy) neither describe a reality nor can be described as true or false, rather they initiate an act. The power of the constative act appears in the change and guarding against the situation more than in informing about the invasion and reporting its consequences.

Key words: Political awareness, pre-Islamic poem, speech act, speech performance , performative act, influential act.

*Lecturer in the Department of Arabic Language at the Faculty of Arts at Hama University.

❖ **مقدّمة:**

التّوجيه السّياسيّ غرضٌ شعريٌّ، دافعُه الرّئيسُ حرصُ الشّاعر على وجود القبيلة والحفاظ على كينونتها وتدبير أمورها وإرشادها إلى السّبل الّتي تجنّبها المخاطر المُحدِقة بها، تُثبت مضامينُه دورَ الشّاعر التّوعويّ في القبيلة، وتُبرز الوجدانَ الّذي بعث الشّاعر إلى طرقِ معنى التّوجيه السّياسيّ في قصيده. ومن هنا فإنّ البحث يدرس قصيدة الوعي السّياسيّ الجاهليّة الّتي تُفصح عن عمق الانتماء القبليّ عند الشّاعر الجاهليّ، ويستثمر مفهومَ الفعل الكلاميّ في قراءة مضامين قصيدة الوعي السّياسيّ الجاهليّة. وتجلّت إشكاليّة البحث في أسئلةٍ مهمّةٍ، منها: هل كان الشّاعر الجاهليّ صوتَ القبيلة في ملمّاتها؟، وهل استطاع شاعر الوعي السّياسيّ أن ينهض بالمهام المنوطة به ويؤدّي دوراً توعويّاً سياسيّاً في قبيلته؟، وكيف استطاعت نظريّة الأفعال الكلاميّة أن تُثبت القوةَ الإنجازيّة وتُبرز الفعل التّأثيريّ للخبر في مضمونات قصيدة الوعي السّياسيّ؟. وتوسّل البحث في سبيل بلوغ غايته والإجابة عن تساؤلاته بالمنهج الأسلوبيّ في دراسة مضامين قصيدة الوعي السّياسيّ الجاهليّة وفق نظريّة أفعال الكلام، ولم يستغنِ عن المنهج التّاريخيّ في سبيل فهم السّياق العام الّذي وجّه به الشّاعر رسالته السّياسيّة شعريّاً إلى قبيلته.

وقد أفاد البحثُ في مجالي التّنظير والتّطبيق من جهودٍ عدّةٍ تناولت نظريّة الأفعال الكلاميّة وطبّقتها على العديد من سور القرآن الكريم[1]، وانصبّت العناية فيها على بيان الفعل الإنجازيّ وإثبات الفعل التّأثيريّ للخبر في آي القرآن الكريم. ووجدت النّظريّة مجالاً خِصباً لها في الشعر الحِكميّ الجاهليّ[2]. ويظهر أنّ المدوّنات السّابقة توافرت فيها العناصرُ الّتي جعلتها قابلةً للمقاربة التّداوليّة. وإن كان البحث لا يعدم فائدةً يرتجيها من هذه الدّراسات في مجال التّطبيق، إلّا أنّ العنايةَ موجّهةٌ إلى الدّراسات الّتي تناولت قصيدة الوعي السّياسيّ الجاهليّة وفق نظريّة الأفعال الكلاميّة، ولم يجدِ البحث _في حدود بحثه_ ما يمسّ هذه الدّراسة ويتّصل بها إلّا ما جاء في البحث الموسوم بـ (القوة الإنجازيّة للأفعال الطّلبيّة في عينيّة لقيط بن يعمر الإيادي "الأمر والنّهي أنموذجاً")؛ إذ إنّ عينيّة لقيط من أبرز قصائد الوعي السّياسيّ في العصر الجاهليّ[3]، وقد اهتمّ فيها الباحث بالأفعال الكلاميّة الطّلبية، وأثبت الفعل الإنجازيّ للأفعال الطّلبيّة المُجسَّدة في فعلي الأمر (افعل) والنّهي (لا تفعل)، وأثبت أنّ أفعال العينيّة الطّلبية أحداثٌ مُنجَزة تتجاوز المظهر الكلاميّ لصيغتيّ الأمر والنّهي[4]. ويظهر أن الفعل الإنجازيّ والتّأثيريّ في إخباريّات العينيّة لا يقلّ أهميةً وقوةً إنجازيّةً عن الأفعال الطّلبيّة.

---

[1] يُذكر منها: أسلوب الخبر في سورتي المائدة ومريم "موازنة بلاغيّة"، هناء شهابي وحسين الطّائي، مجلة أبحاث كليّة التّربية الأساسيّة، مج2، ع1، 2005م.

[2] يُذكر منها: الأفعال الكلاميّة غير المباشرة من خلال شعر الحكمة "ديوان زهير بن أبي سُلمى أنموذجاً"، كريمة قسميوري، إشراف: خديجة عنيشل، جامعة قاصدي مرياح ورقلة، 1437هـ، 2016م.

[3] ومن أبرز الآراء في عينيّة لقيطٍ قولُ العسكري: هي أجود قصيدة قيلت في الإنذار، وهذه أجود أبيات قيلت في صفة صاحب حرب وقائد جيش. ينظر: الأوائل، العسكري (أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل 395هـ)، ط1، دار البشير، طنطا، 1408هـ، ص97. وجاء عنها: "ومن القصائد الجاهليّات الّتي لا يعرف في مثل معناها وجودتها وجزالة ألفاظها. على أنّ قوماً قد قالوا في التّحريض أشعاراً قد ذكرناها وليست كهذه...، ولا أعرف مثلها لمتقدّمٍ ولا محدثٍ". المنثور والمنظوم، أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور، تح: محسن عياص، ط1، تراث عويدات، بيروت، 1997م، ص63.

[4] عدّ الباحث من القوى الإنجازيّة للأفعال الطّلبيّة: الالتماس والتّحذير والتّمني والإنذار. ينظر: القوة الإنجازيّة للأفعال الطّلبيّة في عينيّة لقيط بن يعمر الإيادي "الأمر والنّهي أنموذجاً"، وناسة كرازي، مجلة العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة، جامعة باتنة، ع36، جوان، 2017م، ص81 وما بعدها.

❖ **الشّاعر الجاهليّ وقصيدة الوعي السّياسيّ:**

1- مكانة الشّاعر: تُعَزِّز قصيدةُ الوعي السّياسيّ الجاهليّة الانتماءَ القبلي للشّاعر الجاهليّ، وتُفصح عنه، فلا تكاد قصيدةٌ جاهليّةٌ تخلو من التّعبير عنه، سواءٌ أكانت في الفخر والحماسة أم في الرّثاء أم في العتاب[1]. ويقف الشّاعر من قومه في كلِّ ما تقدَّم من أغراضٍ شعريّةٍ موقفَ المتمسّك بانتمائه القبلي سواءٌ أصابت القبيلة في حقّه أم أخطأت[2]. ويظهر أنّ الشّعراء في العصر الجاهليّ لم يكن شعرهم وَقْفاً على الفخر بالقبيلة وهجاء أعدائها ورثاء قتلاها والحضّ على الأخذ بالثّأر، بل إنّ مِن الشّعراء الجاهليّين مَنْ كان له رأيٌ في شؤون القبيلة السّياسيّة في السّلم وفي الحرب، يقول مصطفى صادق الرّافعي: "وعندنا أن شعراء الجاهليّة ... لم يُهملوا نوعًا من الشّعر السّياسيّ، وإن كان قليلًا بينهم لقلة البواعث عليه، كقصيدة لقيط بن يَعْمُرَ الإيادي الّتي يُنذر بها قومَه غزو كسرى إيّاهم...، ويعلّمهم وجهَ الحزم في تدبير أمرهم وسياسة مجتمعهم واختيار مَن يلقون إليه المقادة في ذلك،... وكأبيات سَلَمة بن الخُرشب الّتي أرسل بها إلى سُبيع التّغلبي في شأن الرُّهن الّتي وضعت على يديه في قتال عبس وذبيان، يذكر فيها لسبيع سياسةَ القضاء وتدبيرَ الحكم"[3]. ولا يخفى ما في كلام الرّافعي من دلالةٍ واضحةٍ وإشارةٍ بيّنةٍ إلى دور الشّاعر التّوعويّ السّياسيّ في قومه. وقد أرجع بعض الباحثين الدّور التّوعويّ للشّاعر الجاهلي إلى مَا يمتلكه من مقوماتٍ تجعله يضطلع بتلك المهام المنوطة به، فَهُمْ "أهل المعرفة والفَهم، لِمَا كان لهم من ذكاءٍ وصفاءِ ذِهنٍ في فهم تجارب الحياة، وفي نظم خلاصة تلك التجّارب على شكل علمٍ أو حِكمٍ تفيد في التّهذيب وفي التّوجيه وفي وعظ النّاس، ولهذا كان لهم رأيٌّ في السّياسة في السّلم وفي الحرب"[4]. وتثبت القصص المبثوثة في كتب التّاريخ دورَ الشّاعر التّوعويّ السّياسيّ، فقد أورد الطّبري مَا كان مِن أمر سَعِد بن أبي وقّاص في يوم (أرماث)، إذ استدعى الشّعراء لَمّا وقعت الوقائع بين العرب والفرس في معركة القادسيّة، وخاطبهم قائلاً: "قوموا في النّاس بما يحقّ عليكم ويحقّ عليهم، عند مواطن البأس، فإنّكم من العرب بالمكان الذي أنتم به، وأنتم شعراء العرب وخطباؤهم، وذوو رأيهم ونجدتهم وسادتهم، فسيروا في النّاس،

---

[1] تُنظر معلقة عمرو بن كلثوم في الفخر والحماسة في: شرح القصائد التّسع المشهورات، أبو جعفر أحمد بن محمّد النّحاس (338هـ)، تح: أحمد خطّاب، دار الحريّة للطّباعة، مطبعة الحكومة، بغداد، 1393هـ، 1973م، 771/2 وما بعدها. و: قصيدة دريد بن الصِّمة في رثاء أخيه عبد الله في: الأصمعيّات، الأصمعيّ (أبو سعيد عبد الملك بن قُريب 122– 216هـ)، تح: أحمد محمّد شاكر وعبد السّلام هارون، ط3، دار المعارف بمصر، 1383هـ، 1963م، ص106 وما بعدها. و: قصيدة عمرو بن قَمِيئَة في عتاب قومه، ديوان عمرو بن قَميئة، تح: حسن كامل الصّيرفي، معهد المخطوطات العربيّة، 1385هـ، 1965م، ص19.

[2] يقول دريد بن الصِّمّة:[الطّويل]

وَمـا أَنـا إِلّا مِـن غَزِيَّـةَ إِن غَـوَت غَوَيتُ وَإِن تَرشُد غَزِيَّةُ أَرشَدِ

الأصمعيّات، ص107.

[3] تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرّافعي (1356هـ)، دار الكتاب العربيّ، د. ت، 89/3. ويقول سلَمة بن الخُرشُب في شعره الّذي أرسل به إلى سُبيع التّغلبي في شأن الرُّهُن الّتي وُضعت على يديه في قتال عبس وذبيان، يحضّه على إقامة العدل: [السّريع]

أبلـــغ سُـــبَيْعاً وأنـــتَ سَـــيِّدُنا قِـــدْماً وأوفـــى رجالِنـــا ذِمَمَـــا

أنَّ بَغيضـــــاً وأنَّ إخوَتَهـــــا ذُبيـــان قـــد ضـــرّموا الّـــذي اضـــطرما

نبِّيـــتَ أن حكّمـــوك بيـــنهمُ فـــلا يَقُـــولُنَّ بـــئس مـــا حَكَمَـــا

إنْ كنـــتَ ذا خِبـــرَةٍ بشـــأنِهمُ تعـــرفُ ذا حقِّهِـــم ومَـــن ظَلَمَـــا

فـــاحكمْ وأنـــت الحكـــيمُ بيـــنهمُ لـــن يَعْـــدَموا الحكـــمَ ثابتـــاً صَـــتَمَا

البيان والتّبيين، الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر 255هـ)، تح: عبد السّلام محمّد هارون، د. ت، 239/1.

[4] المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد عليّ (1408هـ)، ط4، دار السّاقي، 1422هـ، 2001م، 17/ 69.

فذكّروهم وحرّضوهم على القتال"[1]. ويظهر أنّ الدّور التّوعويّ السّياسيّ الّذي أناطه سعد بن أبي وقّاص بالشّعراء في بداية عصر الإسلام لم يأتِ من فراغ بل هو امتدادٌ لِمَا كان عليه شعراء الجاهليّة، فالشّاعر الجاهلي كان النّاطقَ الرّسميَّ باسم القبيلة ولسانَ حالها في جميع أحوالها.

2- قصيدة الوعي السّياسيّ:

يُثبت شعر الوعيّ السّياسيّ في العصر الجاهليّ علمَ الشّاعر بالأخطار التي تحيط بقبيلته وإدراك عواقبها، فيُرشدها إلى السّبل الّتي تستطيع من خلالها أن تحافظ على وجودها؛ أي إنّ شاعر الوعي السّياسيّ هو شاعرٌ امتلك الانتماء القبليّ مضافاً إليه الوعي السّياسيّ الّذي يقدّمه على شكل رسالةٍ شعريّةٍ يستهدف من خلالها إنقاذَ القوم، وتدبيرَ أمورهم والحفاظ على كينونتهم. ولا يستوجب الانتماء القبليّ أن يرشد الشّاعر قومَه إلى الصّواب، وأن يجنّبهم المخاطر التي تحدق بهم، إذ إنَّ الشاعر في بعض المواقف قد يتابعُ قومَه على غِيّهم وضلالهم وسفاهة رأيهم، وهنا يفترق شعر الوعي السّياسيّ عن شعر الانتماء القبليّ، فالانتماء القبليّ يعني بصورةٍ ما الحفاظ على وجود القوم ممّا يهدّده؛ لأنّ وجود الشاعر مرتبطٌ بوجودهم، ويمكن أن يكون ذلك الانتماء مضمَّناً في أغراض الشّعر كالفخر بالقوم وهجاء الأعداء والرّثاء والعتاب وغير ذلك. وتظهر في شعر الوعي السّياسيّ حكمةُ الشّاعر وحنكته السّياسيّة، ولا يخفى أنّ الحكمةَ السّياسيّة خصلةٌ رئيسةٌ في شاعر الوعي السّياسيّ، وهي تظهر إثر مخالطة الملوك وكثرة التّجارب، فالشّاعر هنا حكيم مُجرّب، مُطلِّع على سياسة الأمم الأخرى، يقارن سياستهم بسياسة قبيلته، ويعلم ما لديهم وما لدى قومه فيُحسن تقدير عواقب الأمور، وهذا لبّ الوعي السياسيّ.

ويمكن للبحث أن يُعرّف الوعي السّياسيّ بأنّه الرسالة السّياسيّة التي يوجّهها الشّاعر إلى قومه (التّحذير من المخاطر وتقديم الحلول)، ويجب أن تُصاغ ضمن رسالة شعريّةٍ موجّهةٍ إلى القوم الّذين ينتمي إليهم، يتوازن فيها الحثّ مع التّقريع، واللّوم مع الاستنهاض. ويبدو أنّ شاعر الوعيّ السّياسيّ في العصر الجاهليّ لم يقصد من رسالته الشّعريّة الموجّهة إلى قومه الإخبارَ أو الإبلاغَ عن غزوٍ مرتقَب بقَدْر ما تُفصح إخباريّاته عن مسعاه إلى الإنجاز والتغيّير، ويغدو في رسالته الشّعريّة ناصحاً قومَه محذّراً إيّاهم من مغبّة غزوٍ أو خطرٍ خارجيٍّ يهدّد وجودهم وكيانه المرتبط بهم. وما الشّاعر الجاهليّ إلّا فردٌ من أفراد القبيلة يرتبط بها وجوديّاً، فضلاً عن أنّه يحمل أعباء الدّفاع عنها وحمايتها بسلاحه الشّعريّ، وإن لم يكن فارساً من فوارسها.

وتجدر الإشارة إلى أنّ البحث يُعنى بدراسة قصيدة الوعي السّياسيّ الّتي تكاملت فيها مضامين عدّة؛ تفصح عن وعي الشّاعر السّياسيّ من خلال توجيهاته السّياسيّة التي تحثّ على أمورٍ، وتطلب الكفّ والنّهي عن أمور، في قصيدةٍ أفردها الشّاعر لذلك. ويتجاوز البحثُ التّوجيهاتِ أو النّصائحَ السّياسيّة الّتي جاءت عَرَضاً ضمن قصائدَ لأغراضٍ شعريّة من مثل العتاب والحكمة... . وعلى هذا استطاع البحث أن يُثبتَ تَكاملَ هذه المضامين في قصيدة لقيط بن يعمر الإياديّ وقصيدتين للنّابغة الذّبيانيّ. فضلاً عن أنَّ البحث يتناول مضامين التّوجيه السّياسيّ في القصائد المدروسة وفق نظريّة الأفعال الكلاميّة الّتي تنبّه على المنجَز الكلاميّ الّذي يؤدّيه المتكلّم بمجرد نطقه منطوقاتٍ معينّة؛ إذ إنّ اللّغة لا تقتصر على الإخبار والوصف بل هي أداةٌ لإنجاز الأفعال. ويظهر أنّ هذا الإنجاز يبقى رهن التّلفّظ بالأفعال، ويسمح مقام التّكلّم بتحديد الطّابع التّصرفيّ الّذي تتّخذه هذه المقولة.

[1] تاريخ الطّبري: تاريخ الرّسل والملوك، الطّبري (محمّد بن جرير أبو جعفر 310هـ)، ط2، دار التّراث، بيروت، 1387هـ، 533/3.

3- نظريّة الأفعال الكلاميّة:

أ- في الدّرس اللّسانيّ الغربيّ:

يهتمّ الدّرس التّداوليّ بدراسة الظّواهر اللّغويّة في مجال استعمالها؛ لأنّ "المعنى ليس شيئاً متأصّلاً في الكلمات وحدها، ولا يرتبط بالمتكلّم وحده، ولا السّامع وحده، فصناعة المعنى تتمثّل في تداول اللّغة بين المتكلّم والسّامع في سياق محدّد (ماديّ واجتماعيّ ولغويّ) وصولاً إلى المعنى الكامن في كلامٍ ما"[1]. وقد وضع (أوستن) وتلميذه (سيرل) نواة التّداوليّة وطوّرا مفهوم الفعل الكلاميّ؛ وهو أهم الجوانب الّتي قام عليها البحث التّداوليّ والّتي عرّفت بالجهاز المفاهيميّ للتّداوليّة، وهي (الإشاريّات، والافتراض السّابق، والاستلزام الحواريّ، الأفعال الكلاميّة)[2]. ويظهر أنّ الأفعال الكلاميّة من أبرز المفاهيم حضوراً في الدّرس التّداوليّ وفي تحليل الخطاب، وهي الرّكيزة الأساسيّة الّتي قام عليها الاتّجاه التّداوليّ.

وتتأسّس نظريّة الأفعال الكلاميّة على مبدأ رئيس هو أنّنا عندما نتكلّم فنحن بصدد إنجاز عملٍ في الواقع، فكلّ "ملفوظ ينهض على نظام دلاليّ إنجازيّ تأثيريّ... ويعدّ نشاطاً ماديّاً نحويّاً يتوسّل بأفعال قوليّة لتحقيق أغراضٍ إنجازيّةٍ كالطّلب والأمر... وغاياتٍ تأثيريّةٍ تخصّ ردودَ فعل المتلقي كالرّفض والقبول... ومن ثَمّ فهو يطمح إلى أن يكون فعلاً تأثيريّاً في المخاطَب اجتماعياً ومؤسساتيّاً ومن ثمّ إنجاز شيء ما"[3].

وقد ظهرت هذه النّظريّة على يد (أوستن) الّذي رفض التّقسيم التّقليديّ للجمل (خبريّة وإنشائيّة)، وتجاوز الاحتكام إلى معيار الصّدق والكذب في تحديد نوع الجمل، وأطلق على ذلك المعيار مصطلحَ (المغالطة الوصفيّة)، كما أطلق مصطلح أفعال الكلام أو الأفعال الكلاميّة على الجمل الّتي لا تصف واقعاً ولا توصف بالصّدق أو الكذب إلّا أنّها تؤدّي فعلاً[4]. وميّز بين نوعين من الأفعال الكلاميّة:

1- أفعال إخباريّة: تصف وقائع العالم الخارجيّ، وتوصف بالصّدق أو الكذب.

2- أفعال أدائيّة: ولا يطبّق عليها معيار الصّدق أو الكذب، إنّها أفعال منجَزة مؤدَّاة في ظروفٍ ملائمةٍ، وهي أفعال موفّقة إذا حقّقت شروط الملاءمة (وهي شروط أساسيّة إنْ لم تتحقّق كان ذلك إيذاناً بإخفاق الأداء) والشّروط القياسيّة (وهي شروط غير أساسيّة لأداء الفعل، وعدم تحقّقها يسيء إلى أداء الفعل)[5]. وأثار (أوستن) سؤالاً مفاده: كيف ننجز فعلاً كلاميّاً؟ ووجد أنّ الفعل الكلاميّ مركّب من ثلاثة أفعال لا تنفصل عن بعضها إلّا لغرض الدّرس، وهي:

1- الفعل اللّفظيّ: وهو أصوات لغويّة تنتظم في تركيب نحويّ صحيح ينتُج عنه معنىً محدّد.

2- الفعل الإنجازيّ: المعنى الإضافيّ الّذي يكمن خلف المعنى الأصليّ الّذي يؤدّيه الفعل اللّفظيّ.

---

[1] آفاق جديدة في البحث اللّغويّ المعاصر، محمود أحمد نحلة، دار المعرفة الجامعيّة، القاهرة، 2002م، ص14.

[2] الإشاريّات: ألفاظ وتعبيرات تعتمد اعتماداً كليّاً تامّاً على السّياق الّذي تستعمل فيه ولا يمكن تفسيرها بمعزل عنه. ينظر: نفسه، ص15-16. الافتراض السّابق: وفيه يوجّه المتكلّم حديثه إلى المخاطَب أو السّامع ممّا يفترض سلفاً أنّه معلومٌ له، وأنّ المخاطَبَ قادرٌ على الحركة، وأنّ المتكلِّم في منزلة الآمر. وكلّ ذلك موصول بسياق الحال وعلاقة المتكلّم بالمخاطَب. ينظر: نفسه، ص26. وينظر: التّداولية عند العلماء العرب "دراسة تداوليّة لظاهرة الأفعال الكلاميّة في التّراث اللّسانيّ العربيّ"، مسعود صحراوي، ط1، دار الطّليعة، بيروت، 2005م، ص30. الاستلزام الحواريّ: هو ما يريد المتكلّم إبلاغه اعتماداً على أنّ السّامعَ قادرٌ على أن يصل إلى مراد المتكلِّم بما يتاح له من أعراف الاستعمال ووسائل الاستدلال. ينظر: آفاق جديدة في البحث اللّغويّ المعاصر، ص33.

[3] التّداوليّة عند العلماء العرب ، ص40.

[4] ينظر: آفاق جديدة في البحث اللّغويّ المعاصر، ص43.

[5] ينظر: نفسه، ص43.

3- الفعل التّأثيريّ: وهو الأثر الّذي يُحدثه الفعل الإنجازيّ في السّامع[1]. وانصبّ تركيزه على الفعل الإنجازيّ الّذي يتأتّى من خلاله معنى الإنجاز؛ إذ إنّ المتكلّم حين ينطق بقولٍ ما فهو ينجز معنىً قصدياً، وهو ما سمّاه (أوستن) "قوة الفعل"، وغدا الفعل الإنجازيّ لبّ النّظريّة الإنجازيّة الّتي عُرفت به. وقد صنّف (أوستن) الأفعال الإنجازيّة على أساس قوتها الإنجازيّة خمسة أصناف:

1- أفعال الأحكام: وتتمثّل في حكم يصدره قاضٍ أو حَكَم. 2- أفعال القرارات: وتتمثّل في اتّخاذ قرارٍ كالطّرد والحرمان... .3- أفعال التّعهد: وتتمثّل في تعهّد المتكلّم بفعل شيءٍ كالوعد والقسم... . 4- أفعال السّلوك: وتتمثّل في ردّة الفعل على حدثٍ ما كالاعتذار والتّحدي... .5- أفعال الإيضاح: وتوضّح وجهةَ نَظَرٍ كالاعتراض والموافقة والتّخطئة...[2].

وتطوّرت نظريّة الأفعال الكلاميّة، وأخذت شكلها النّهائي على يد (سيرل) تلميذ (أوستن)؛ فقد انطلق من تقسيمات (أوستن) للفعل الكلاميّ (اللّفظيّ والإنجازيّ والتّأثيريّ)، وأضاف إليها الفعل القضوي، واتّسع لديه مفهوم الفعل الكلاميّ ليشمل جميع المنطوقات؛ فالجمل جميعها (إنشائيّة كانت أم خبريّة) _وفق رؤيته_ إنجازيّةٌ إلّا أنّها تختلف في الغرض. وقد صنّف (سيرل) الأفعالَ الكلاميّة خمسةَ أصناف، واستند في هذا التّصنيف إلى أسس منهجيّة ثلاثة: الغرض الإنجازيّ، اتّجاه المطابقة، شرط الإخلاص، في محاولة منه لسدّ الثّغرات الّتي وقع فيها (أوستن)[3]:

الفعل الكلاميّ	غرضه الإنجازيّ	اتّجاه المطابقة	شرط الإخلاص
الإخباريّات	وصف المتكلّم واقعةً معيّنة.	من الكلمات إلى العالم.	يتمثّل في النّقل الأمين للواقعة.
التّوجيهيّات	محاولة المتكلّم توجيهَ المخاطَب إلى فعل معيّن.	من العالم إلى الكلمات.	يتمثّل في الرّغبة الصّادقة.
الالتزاميّات	التزام المتكلّم بفعل شيءٍ في المستقبل.	من العالم إلى الكلمات.	يتمثّل في القصد.
التّعبيريّات	التّعبير عن موقفٍ.	لا يوجد فيها مطابقة، لأنّ المتكلّم لا يحاول أن يجعل كلماته مطابقة للعالم ولا يحاول أن يجعل العالم مطابقاً لكلماته.	الإخلاص شرطٌ رئيس فيها.
الإعلانيّات	إحداث تغيير في الوضع القائم.	من الكلمات إلى العالم، ومن العالم إلى الكلمات.	لا تحتاج إلى شرط إخلاص.

ب- **في الدّرس البلاغي العربيّ:** دُرست نظريّة الأفعال الكلاميّة في التّراث العربيّ ضمن مباحث علم المعاني، وبصورة خاصّة ضمن نظريّة الخبر والإنشاء، وعُقدت لها فصولٌ في مصنّفات البلاغيّين العرب ومؤلّفاتهم، فكانت محطَّ اهتمام النّحاة والبلاغيّين، ومنهم سيبويه (180هـ) وعبد القاهر الجرجاني (471هـ) والقزوينيّ (493هـ) الّذين اهتمّوا في

[1] ينظر: التّداوليّة عند العلماء العرب، ص56. و: آفاق جديدة في البحث اللّغويّ المعاصر، ص43. و: نظريّة الأفعال الكلاميّة بين فلاسفة اللّغة المعاصرين والبلاغيّين العرب، طالب سيّد هاشم الطّبطبائي، مطبوعات جامعة الكويت، 1994م، ص8-9.

[2] ينظر: نظريّة أفعال الكلام العامّة "كيف ننجز الأشياء بالكلام"، جون لانكشو أوستن، تر: عبد القادر قينيني، إفريقيا الشّرق، الدّار البيضاء، 1991م، ص175 وما بعدها. و: نظريّة الأفعال الكلاميّة بين فلاسفة اللّغة المعاصرين والبلاغيّين العرب، ص8 وما بعدها. و: آفاق جديدة في البحث اللّغويّ المعاصر، ص46.

[3] ينظر: آفاق جديدة في البحث اللّغوي المعاصر، ص49 وما بعدها. و: نظريّة الأفعال الكلاميّة بين فلاسفة اللّغة المعاصرين والبلاغيّين العرب، ص30 وما بعدها.

أثناء دراستهم لظاهرة الخبر والإنشاء بمطابقة المقال لمقتضى الحال، وعَرّفوا علم المعاني بأنه "علمٌ يُعرف به أحوال اللّفظ الّتي بها يطابق مقتضى الحال"[1]، أي: إنّ الدّلالات تُفهم من المقام وبحسب قصد المتكلّم وهذا ما تقوم عليه الدّراسات التّداوليّة الحديثة.

تُعدُّ نظريتا الخبر والإنشاء إذن منطلق نظريّة الأفعال الكلاميّة في الدّرس التّداوليّ الغربيّ؛ إذ إنّ علم المعاني يدرس المعنى في إطار السّياق الّذي قيل فيه، وهذا الرّائز الرّئيس لنظريّة الأفعال الكلاميّة الّتي وضع أسسها (أوستن)، ويتّضح ذلك في كلام الباحثين من العرب في علم التّداوليّة في محاولة ربط النّظريّة بجذورها الأصليّة في الدّرس البلاغيّ العربيّ، يقول مسعود صحراوي: "تعتبر نظريّة الخبر والإنشاء _عند العرب_ من الجانب المعرفيّ العام مكافئةً لمفهوم الأفعال الكلاميّة عند المعاصرين"[2].

وورد عن البلاغيّين أنّ الخبرَ أصلُ الكلام عند العرب وأساسه، يقول الجرجاني: "اعلم أنّ معاني الكلام كلّها معانٍ لا تُتصوّر إلّا فيما بين شيئين، والأصل والأوّل هو (الخبر)، وإذا أحكمت العلم بهذا المعنى فيه، عرفته في الجميع"[3]. وقد استند البلاغيون في تعريفهم الخبر إلى معياري الصّدق والكذب[4] أو مطابقة الكلامِ الواقعَ ومخالفته. وقد اعتمد الجاحظ (255هـ) المعيار الثّاني فقسّم الخبر إلى: 1- خبر صادق مطابق للواقع مع الاعتقاد بمطابقته. 2- خبر كاذب مطابق للواقع مع الاعتقاد بعدم مطابقته. 3- خبر غير صادق وغير كاذب، وهو عنده أربعة أنواع: أ- الخبر المطابق للواقع مع الاعتقاد بأنّه غير مطابق. ب- الخبر المطابق للواقع دون اعتقاده أصلاً. ج- الخبر غير المطابق للواقع مع الاعتقاد بأنّه مطابق. د- الخبر غير المطابق للواقع مع اعتقاده أصلاً[5].

واستند بعض البلاغيّين في تقسيم الخبر إلى حال المخاطَب عند تلقّيه الخبر، فقسّموا الخبر باعتبار حال المخاطَب إلى: 1- خبر ابتدائيّ: وفيه يكون المخاطَب خالي الذّهن بمضمون الخبر. 2- خبر طلبيّ: ويظهر فيه المتلقي حائراً متردّداً في قبوله الخبر، ممّا يستوجب توكيده ليؤكّد الخبر فيقبله السّامع. 3- خبر إنكاريّ: ويكون فيه المخاطَب منكِراً الخبرَ غيرَ معترِفٍ به، فتأتي المؤكّدات حسب درجة إنكاره[6]. وقد لا يعتدّ المخاطِب بظاهر حال المخاطَب، وإنّما ينظر في إخباريّاته إلى حال نفسه ومدى انفعاله بهذه الحقائق، فيصوغ عباراته مراعياً حال النّفس بعيداً عن الدّوافع الخارجية الّتي يلحظها في المخاطَب أو الّتي ينبئ بها حال المخاطَب[7]. وقد أُطلق على هذا الخبرِ الخبرُ الانفعاليّ الّذي يُراعي الحال الانفعاليّة الّتي يصدر عنها المنشئ من دون مراعاة لحال المخاطَب، وقد يكون مؤكّداً كما يكون خاليَ التّوكيد، فتغدو العناصر المؤكَّدة في

---

[1] الإيضاح في علوم البلاغة، القزوينيّ (محمّد بن عبد الرّحمن جلال الدّين الخطيب 739هـ)، تح: محمّد عبد المنعم خفاجي، ط3، دار الجيل، بيروت، 52/1.

[2] التداوليّة عند العلماء العرب، ص49.

[3] دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تح: محمود محمّد شاكر، ط3، مطبعة المدنيّ، القاهرة، 1992م، ص526-527.

[4] ينظر: مفتاح العلوم، السّكاكي (يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي 626هـ)، علّق عليه: نعيم زرزور، ط2، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، 1407هـ، 1987م، ص166. وينظر أيضاً: الطّراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلويّ (745هـ)، ط1، المكتبة العصريّة، بيروت، 1423هـ، 26/1.

[5] ينظر: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، عبد المتعال الصّعيدي (1391هـ)، ط17، مكتبة الآداب، 1426هـ، 2005م، 37/1.

[6] ينظر: مفتاح العلوم، ص170-171.

[7] ويرى محمّد أبو موسى أنّ بعض ضروب التّوكيد يُنظر فيها إلى حال المتكلّم لا المخاطَب، يقول: "وهناك ضروب من التّوكيد لا يُنظر فيها إلى حال المخاطَب، وإنّما يُنظر فيها المتكلِّم إلى حال نفسه ومدى انفعاله بهذه الحقائق، وحرصه على إذاعتها وتقريرها في النّفوس كما أحسّها مقرّرة أكيدة في نفسه". خصائص التّراكيب "دراسة تحليليّة لمسائل علم المعاني"، محمّد محمّد أبو موسى، ط4، مكتبة وهبة، القاهرة، 1416هـ، 1996م، ص91.

هذه الحال عناصر أساسيّة في التّعبير عن هذه الحال الانفعاليّة الّتي يصدر عنها الكلام[1]. ولا تقتصر أغراض الخبر في عرف البلاغيّين العرب على فائدة الخبر أو لازم الفائدة[2]؛ إذ إنّ الخبر فرعٌ من علم المعاني يهتمّ بدراسة الكلام في إطار السّياق الّذي جاء فيه، ممّا يسوّغ أنّ الخبر يؤدّي أغراضاً ومعانيَ مختلفةً يحدّدها السّياق، منها: الإعجاب والمدح والفخر والحزن والتّحسر... . ويفارق الإنشاءُ معيارَي الصّدقِ أو الكذب ومطابقة الواقع أو مخالفته؛ إذ إنّه "ليس لمدلولِ لفظةٍ قبل النّطق بها وجودٌ خارجيٌّ يطابقه أو لا يطابقه"[3].

وما يُعنى به البحث كلامُ البلاغيّين العرب على النّكت البلاغيّة الّتي أفادها العدول البلاغيّ من إنزال الإنشاء منزلة الخبر أو إنزال الخبر منزلة الإنشاء، يقول السّكاكي: "واعلم أنّ الطّلب كثيراً ما يخرج لا على مقتضى الظّاهر، وكذلك الخبر فيذكر أحدهما في موضع الآخر، ولا يصار إلى ذلك إلّا لتوخّي نُكت قلّما يتفطّن لها مَن لا يرجع على دربة في نوعنا هذا، ولا يعضّ فيه بضرس قاطع"[4].

وتُحدّد قرائن السّياقِ غايةَ الكلام الخبريّ والإنشائيّ، فضلاً عن أنّ قوة الفعل للمعنى المعبَّر عنه بأسلوب خبريّ قد تفوق قوة الفعل للمعنى المعبَّر عنه بأسلوب إنشائيّ، يقول الجرجاني: "وجملة الأمر أنّ الخبر وجميع الكلام معانٍ ينشئها الإنسان في نفسه، ويصرّفها في فكره، ويناجي بها قلبه، ويراجع فيها عقله، وتُوصف بأنّها مقاصد وأغراض، وأعظمها شأناً الخبرُ، فهو الّذي يَتصوّر بالصّور الكثيرة، ... وفيه يكون، في الأمر الأعمّ، المزايا الّتي بها يقع التّفاضل في الفصاحة"[5]. ويظهر أنّ دلالة الخبر لم تقتصر عند البلاغيّين العرب على الإنباء والإخبار عن أمرٍ بِقَدر ما كان الخبر قائماً على مبدأ الغائيّة والقصديّة، وهو لبّ نظريّة الأفعال الكلاميّة الّتي تؤكّد أنّ الفعل الكلاميّ يراد به الإنجاز الّذي يؤدّيه المتكلّم بمجرد نطقه منطوقاتٍ معينّةً يسمح بها مقام التّكلّم. وقد أثبت البلاغيّون أنّ الخبر مبحثٌ أصيلٌ من مباحث مطابقة الكلام مقتضى الحال؛ إذ إنّه يُعنى بالمخاطَب فلابدّ أن يحرص المتكلّم على مراعاة حال المخاطَب عند إنتاج الخطاب[6].

❖ **القوة الإنجازيّة للخبر في مضامين قصيدة الوعي السّياسيّ الجاهليّة:**

تضمّنت قصيدة الوعي السّياسيّ إخباريّات عدّة، غدت فعلاً كلاميّاً، تعدّى الخبر فيها حدودَ الإنباء والإخبار إلى الفعل والتّأثير في المتلقي. وهذا ما سيقف عنده البحث ويهتمّ به، فيدرس الفعل الإنجازيّ والفعل التّأثيريّ للخبر في مضامين قصيدة الوعي السّياسيّ الجاهليّة وفق التّرتيب الّذي وردت فيه (التّبليغ السّياسيّ، الإنباء عن حال السّبايا، الإخبار عن حال العدو وعدّته وعتاده).

---

[1] ينظر: مراجعات في النّحو العربيّ، محمّد عبدو فلفل، وزارة الثّقافة، الهيئة العامّة السّوريّة للكتاب، 2018م، ص95.

[2] فائدة الخبر: وهو الخبر الّذي يُلقى إلى مَن يجهله، لازم الفائدة: وهو الخبر الّذي يُلقى إلى مَن لا يجهله. ينظر: مفتاح العلوم، ص166–167.

[3] كتاب التّعريفات، عليّ بن محمّد الجرجاني (816هـ)، ط1، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، 1403هـ، 1983م، ص 38. و: الطّراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، 26/1 وما بعدها. وللتّوسّع في نوعيّ الإنشاء الطّلبيّ وغير الطّلبيّ والأنواع الّتي تندرج تحت كلٍّ منهما، ينظر: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشميّ (1362هـ)، تدقيق: يوسف الصميلي، المكتبة العصريّة، بيروت، ص69 وما بعدها.

[4] مفتاح العلوم، ص323. وعدّ البلاغيون من نكت إنزال الخبر منزلة الإنشاء: التّفاؤل، وإظهار الحرص في وقوع الخبر، والاحتراز عن صورة الأمر، وحمل المخاطَب على المطلوب. ينظر: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ص94. أمّا النكت من إنزال الإنشاء منزلة الخبر فترتبط بالأثر النّفسيّ الّذي تُحدثه الحقيقة المعبَّر عنها بلفظ الإنشاء مكان الخبر في نفس المتلقّي. ينظر: دلالات التّراكيب "دراسة بلاغيّة"، محمّد محمّد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، 2004م، ص265–266.

[5] دلائل الإعجاز، ص528.

[6] إنّ مدار البلاغة عامّة يتّجه إلى المخاطَب فضلاً عن أنّ مراعاة مقتضى حال المخاطَب قضيّةٌ فنّيّة جماليّة أكثر ممّا هو قضيّة معنويّة، هدفها إيصال المعاني إلى الأذهان أو مخاطبة السّامع على نحو معيّن. ينظر: الجملة الخبريّة ودلالاتها البلاغيّة عند الكلاميّين، خليل رشيد فالح، مجلّة آداب الرّافدين، ع8، 1397هـ، 1977م، ص535–536.

1- القوة الإنجازيّة للخبر في التبليغ السّياسيّ:

الإخباريّاتِ أفعالٌ كلاميّةٌ تتجلّى في الجمل الّتي تنقل أخباراً أو تصف وقائعَ أو تقرّ حقائقَ. ويظهر ذلك بوضوح في مطلع قصيدة الوعي السّياسيّ (التبليغ السّياسيّ) الّذي يثبت فيه الشّاعر فحوى الرّسالة الشّعريّة السّياسيّة، ويُنبئ فيه عمّا سيكون من وقائعَ، ويُبرئ فيه الذّمة أمام قومه من خلال التّصريح بالخطر المحدق بهم، فيتجاوز فيه الخبرُ الوصفَ والإخبارَ والتّقريرَ إلى غاياتٍ تُعدّ غايةَ النّظم ومقصدَ المتكلّم. ويبدو الأمر جليّاً في مطلع قصيدتي النّابغة الذّبيانيّ (604م) اللّتين يُحذّر فيهما قومه من الخطر المحدق بهم والغزو المرتقَب، يقول[1]:[البسيط]

لَقَــد نَهَيــتُ بَنــي ذُبيــانَ عَــن أُقُــرٍ وَعَــن تَــرَبُّعِهِم فــي كُــلِّ أَصــفارِ

وَقُلــتُ يــا قَــومُ إِنَّ اللَيــثَ مُنقَــبِضٌ عَلــى بَراثِنِــهِ لِوَثبَــةِ الضــاري

اشتمل محتوى الفعل اللّفظيّ للأبيات على إخباريّات عدّة، طغت الصّيغ الفعليّة فيها على الصّيغ الاسميّة. وتجلّى معنى الفعل اللّفظيّ للخبر في موقف الشّاعر تجاه قومه، فقد نهى القوم عن فعلهم وما كانوا عليه من التّربع في وادي أُقُر (نهيت بني ذبيان عن أُقُر). وتجلّى الفعل الإنجازيّ للخبر أو قوة الفعل في تحذير النّابغة قومَه من سوء الأحدوثة رغبةً منه في الحفاظ على وجودهم من الخطر المحدِق بهم، فأُتْبِعَ النّهيُ عن الإقامة بخبرٍ يبيّن علّةَ التّحذير وغايةَ النّهي عنها. ومبعثُ ذلك كلّه إدراكُ النّابغة دورَ الشّاعر التّوعويّ في القبيلة؛ إذ إنّ "العقلاء من الشعراء وذوو الحزم ... يحذرون من سوء الأحدوثة، ولا يُمضون القولَ إلا لضرورةٍ ولا يحسُن السّكوت معها"[2]. ويبدو أنّ الإخبار بوساطة الصّيغ الاسميّة (إنّ اللّيث منقبضٌ) بيّن الفعل التّأثيريّ للخبر، وهو الأثر الّذي يُحدثه الفعل الإنجازيّ (تحذير القوم من سوء الأحدوثة) في السّامع؛ ذلك أنّ الإخبار بالاسم _كما أكدّ بعض البلاغيّين_ يظهر إذا كان القصد إلى الفاعل وإلى الإسراع بإزالة الشّك فيمَن صدر منه الفعل، فيبدأ بذكره أولاً قبل أن يذكر الفعل لكي يخصّصه به أو لكي يبعد الشّبهة عن السّامع، ويمنعه من أن يظنّ به الغلط أو التّزيّد[3]. فالفعل التّأثيريّ للخبر يكمن في رغبة النّابغة في تجاوب قومه مع الخبر المُلقَى إليهم لتجنّب الخطر المحدق بهم، فضلاً عن الرّغبة في دحض التّهم المثارة حوله من خشية الملك ومحاولته استرضاءه. ولا يخفى أنّ النّابغة الذّبيانيّ كان متّهَماً في قومه بخوفه من الملك وخشيته منه، وغدت خشيته من الملك عاراً عليه، وقد يَحُول ذلك دون تحقّق

---

[1] أمّا مناسبة القصيدة فتعود إلى أنّ الملك النّعمان بن الحارث الغسّانيّ احتمى ذا أُقُر، وهو وادٍ مملوءٌ حِمضاً، فاحتماه النّاس وتربّعته بنو ذبيان، فنهاهم النّابغة وحذّرهم إغارة الملك، فتربّعوه وعيّروه خوفَه النّعمان، وكان منقطعاً إليه، فلمّا مات النّعمان بن الحارث رثاه النّابغة وانقطع إلى عمرو أخي النّعمان، فوجّه إليهم خيلاً فأصابوهم. أُقُر: اسم وادٍ أو موضع، تربّعهم: حلولهم في ذاك الموضع زمن الرّبيع، أصفار: وكان صَفَراً يومئذٍ في الرّبيع، ومعنى الصّفَر أن يذهب الماء ويتفطّر الشّجر. ديوان النّابغة الذّبيانيّ (زياد بن معاوية بن ضباب بن جناب ت 604م)، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، ط2، دار المعارف، د.ت، ص75-76.

[2] العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني (أبو علي الحسن 390- 456هـ)، تح: محمّد محيي الدّين عبد الحميد، ط5، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1401هـ، 19981م، 167/2. ويثبت ابن رشيق في موضع آخر علّة المكانة المرقومة الّتي يعتليها الشّاعر الجاهليّ، يقول: "كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنّأتها، وصنعت الأطعمة، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر، كما يصنعون في الأعراس، ويتباشر الرّجال والولدان؛ لأنّه حماية لأعراضهم، وذبّ عن أحسابهم، وتخليد لمآثرهم، وإشادة بذكرهم. وكانوا لا يهنّئون إلا بغلام يولد، أو شاعر ينبغ فيهم أو فرس تنتج". نفسه، 65/1. ولا تخلو كتب الأدب من كلامٍ على مكانة الشّاعر في القبيلة، وما يمتلكه الشّاعر من إدراكٍ ومعرفةٍ ويقظةٍ تجعله قادراً على قول ما يكون في مصلحة القبيلة والتّعبير عن الوجدان القبليّ. فضلاً عن أنّ وظيفة الشّاعر في قبيلته من أعلى وظائف الزّعامة والقيادة وأهمّها، وهذا وضع قضته ظروف الحياة الجاهليّة، كما دفعت حاجة القبيلة إلى وجود قيادة معنويّة تتمثّل في شعراء القبيلة. ينظر: أدب العرب في عصر الجاهليّة، حسين الحاج حسن، ط3، المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، 1417هـ، 1997م، ص186 وما بعدها.

[3] كان الجرجاني أول من نبّه إلى الفرق بين الخبر الاسميّ والخبر الفعليّ، وتابعه القزوينيّ في ذلك، إذ إنّ الخبر الاسميّ يفيد الثّبات في حين أنّ الخبر الفعليّ يفيد التّجدّد والحدوث. وبَسَطَ إبراهيم السّامرائي القول في معنى التّجدّد والحدوث، وأكّد أنّه لا يمكن النّظر إلى جملة الأخبار إلا بتكامل عناصر تركيبيّة تدعمها قرائن حتى يُفهم التّجدّد والحدوث. ينظر: دلائل الإعجاز، ص173 وما بعدها. و: الفعل زمانه وأبنيته، إبراهيم السّامرائي، ط2، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، 1400هـ، 1980م، ص204.

الفعل التّأثيريّ للخبر أو الأثر الّذي يحدثه الفعل الإنجازيّ في السّامع. ويؤيّد القوةَ التّأثيريّة (رغبة النّابغة في تجاوب قومه مع الخبر ودحض التّهم المثارة حوله) للفعل الإنجازيّ (تحذير القوم من سوء الأحدوثة) مجيءُ الخبر إنكاريّاً (لقد نهيت بني ذبيان عن أُقُر)، وهو الخبر الّذي يُلقى إلى مخاطَبٍ منكِرٍ الحُكمَ معتقِدٍ خلافَه، فيجب عندئذٍ أن يؤكَّد لإزالة الشّك عن المخاطَب. وقد صرّح النّابغة الذّبياني في موضع آخر في القصيدة نفسها برغبته في تجاوز القومِ التُّهَمَ الموجَّهةَ إليه، والتفاتهم إلى الخطر المُحدق بهم، يقول[1]:

وَعَيَّرَتنـــي بَنـــو ذُبيـــانَ خَشـــيَتَهُ وَهَل عَلَيَّ بِأَن أَخشاكَ مِن عارِ

وإن كانت الآليات المعتمدة في الصّوغ قد ألمحت إلى موقف القوم من إنباءات النّابغة، فهو في موضعٍ آخر يُصرّح بموقفِ قومه من إخباريّاته عن وقعة الملك عمرو بن الحارث الأصغر الغسّانيّ ببني مُرّة بن عوف بن سعد بن ذبيان؛ إذ إنّهم لم يأبهوا لإنباءاته ولم يلقوا بالاً لنصحه وإرشاده يقول[2]:[الطّويل]

نَصَـحتُ بَنـي عَـوفٍ فَلَـم يَتَقَبَّلـوا وَصاتي وَلَم تَنجَح لَدَيهِم وَسائِلي

ويظهر أنّ النّابغة الذّبيانيّ لمّا قصد أمراء الحيرة للارتزاق، ونادمهم زمناً طويلاً ممتدِحاً متكسِّباً، قد خرج على الغاية العامّة للقبيلة، وانفكّ من النّظام القبليّ، ممّا سلبه تقدّم المنزلة في قومه. ولعلّ هذا ما دفع بعض الرّواة _ومنهم أبو عمرو بن العلاء_ إلى القول عن شعر النّابغة بعد أن ارتحل إلى بلاط أمراء الحيرة: "ولقد وضع قول الشّعر من قدْر النّابغة الذّبياني، ولو كان في الدّهر الأوّل ما زاده ذلك إلا رفعةً"[3]. ويمكن أن يكون الحكم على منزلة النّابغة في قومه، والحكم على قيمته ومكانته بينهم مردوداً إلى احتكام العرب إلى معيار المقاييس القبليّة، فمصلحة القبيلة الرّائز الرّئيس في الحكم بعيداً عن المقدرة الفنيّة للشّاعر؛ لأنّ القبيلة تحتاج إلى شاعرٍ يُقيّد مآثرها، ويفخّم من شأنها، ويعيش في كنف مفاهيمها وغاياتها، لا يخرج عليها ولا يلتزم سواها[4].

2– القوة الإنجازيّة للخبر في الإنباء عن حال السّبايا:

إنّ شاعر الوعي السّياسيّ عندما يُخبر عن حال السّبايا يُنبئ عن حدث مستقبليّ لمّا يقعْ، يُصوّر أبرز جزئيّاته وكأنّه يقع في لحظة التّكلّم، ويحاول من خلال ذلك كلّه أنْ يُثبت انعكاس الحدث وتداعياته على الضمير الجمعيّ؛ فيخوّف قومَه من أخطر ما يؤول إليه حالهم بعد الغزو وما يَشينهم ويُخزيهم (سبي النّساء) في حال أصرّوا على غيّهم. ولعلّ ذلك ما دفع النّابغة الذّبيانيّ إلى انتقاء مشهد السّبي من دون غيره من مشاهد الغزو، وأبرز أدقّ جزئياته ليبيّن آثاره ومآله على القبيلة، وقارن حال النّساء قبل الغزو (حِسان، خِيار، كريمات) بحالهنّ بعد الغزو، وأثبت أثر الغزو فيهنّ نفسيّاً (الضّعف، الانكسار...). ويظهر أنّ الإخبار عن حال السّبايا من أبرز المضامين الّتي يفارق فيها الخبرُ معنى الفعل اللّفظيّ (الإنباء عن حال السّبايا بعد الوقائع المُحذَّر منها)، ويغدو فيها الخبر منجزاً كلاميّاً لا تتوقف دلالته على فعله اللّفظيّ، وتكمن

[1] ديوان النّابغة الذّبيانيّ، ص78.

[2] نفسه، ص143.

[3] البيان والتّبيين، 241/1. وقال عنه ابن قتيبة: "كان شريفاً فغضّ منه الشّعر". الشّعر والشّعراء، ابن قتيبة (أبو محمّد عبد الله بن مسلم 276هـ)، دار الحديث، القاهرة، 1423هـ، 162/1.

[4] للتّوسع في مكانة الشّاعر في قومه، ينظر: نظرة في منزلة الشّاعر العربيّ قبل الإسلام وبعده، وديعة طه النّجم، مجلة الآداب، جامعة بغداد، ع9، 1996م، ص263 وما بعدها.

غائيته في فعله الإنجازيّ وفعله التّأثيريّ. ويتجلّى ذلك في رسالة النّابغة الذّبيانيّ الشّعريّة المضمّنة في قصيدته[1] في أثناء إخباره عن حال السّبايا بعد أن يغزو جيش الملك عمرو بن الحارث قومَه، يقول[2]:[البسيط]

لا أَعــرِفَن رَبرَبــاً حــوراً مَــدامِعُها كَـــأَنَّ أَبكارَهـــا نِعـــاجُ دُوّارِ

يَنظُرنَ شَزراً إِلى مَن جاءَ عَن عُرُضٍ بِأَوجُـــهٍ مُنكِـــراتِ الـــرِقِّ أَحـــرارِ

خَلْـفَ العَضـاريطِ لا يـوقَينَ فاحِشَـةً مُستَمسِـــكاتٍ بِأَقتـــابٍ وَأَكـــوارِ

يُـذرينَ دَمعـاً عَلـى الأَشـفارِ مُنحَـدِراً يَـأمُلنَ رِحلَـةَ حِصـنٍ وَابـنِ سَـيّارِ

بدأ إخبار النّابغة عن حال السّبايا بعد الغزو بضمير المتكلّم الّذي يحثّ السّامع ويبعثه على الاستماع، ويحفّز الهمم، ويلفت الأنظار إلى تأمّل الآثار المترتّبة على الحدث (غزو جيش الملك). وكان الالتفات عن ضمير المتكلّم (لا أَعرِفَن رَبرَباً حوراً مَدامِعُها) إلى ضمير الغائب (يَنظُرنَ شَزراً، لا يوقَينَ فاحِشَةً) الّذي يحيل على الجانب الإخباريّ في أثناء كلامه على حال السّبايا بعد الغزو. فضلاً عن أنّ الخبرَ الّذي يُنبئ عنه النّابغة بأفعال مضارعة تدلّ على وقوع الحدث لحظة التّكلّم حدثٌ مستقبليّ، يلائمه الإخبار بالفعل المضارع الّذي يمنح المسند خاصيّة التّجدّد الحاصل من الفعل وفق الصّيغة الزّمانيّة للمسند (الفعل المضارع: لا أَعرِفَن رَبرَباً)، وهي خاصيّة لا يمنحها الاسم الّذي يثبت المعنى للشّيء ويتّصف فيها المسندُ بالمسند إليه اتّصافاً ثابتاً غير متجدّدٍ[3]. ويظهر أنّ الفعل الإنجازيّ للخبر تجاوزَ المعنى الّذي ينتجه الفعل اللّفظيّ (الإعلام عن حال السّبايا بعد الغزو وما يترتّب عنه من آثار)، وأضاف معنىً آخر يكمن في محاولة المتكلّم توجيهَ المخاطَب إلى فعلٍ معيّنٍ، فيستنهض الهمم بوساطة التّخويف من سوء عاقبة الغزو (سبي النّساء) ومآلات السّبي عليهنّ: إنكار السّبي والرّق: (يَنظُرنَ شَزراً بِأَوجُهٍ مُنكِراتِ الرِقِّ أَحرارِ)، وإنكار التّمتع بهنّ: (لا يوقَينَ فاحِشَةً مُستَمسِكاتٍ بِأَقتابٍ وَأَكوارِ)، والحزن على ما صِرْنَ إليه: (يُذرينَ دَمعاً، يَأمُلنَ رِحلَةَ حِصنٍ وَابنِ سَيّارِ). ومن المثبت أنّ سبي النّساء كان أكثر ما يقضّ مضجع الجاهليّ ويؤلمه ويفجّر غضبه، فالتطاول على أكثر محرمات الجاهليين حساسيّةً (أعراض نسائهم) كفيلٌ بإضرام نار الحروب والغزوات لأجل ذلك[4].

ويؤجّج النّابغة حميّة قومه في موضع آخر في شعره، يتعدى فيه الخبرُ غايةَ لازم الفائدة ومعنى الفعل اللّفظيّ للخبر (وصف حال السّبايا) لينجزَ فعلاً ويُحدث أثراً توضّحه الآليات المعتمدة في نظم القصيد، يقول[5]:[الطّويل]

فَقُلــتُ لَهُـــم لا أَعـــرِفَنَّ عَقـــائِلاً رَعابيـبَ مِـن جَنبَـي أَريـكٍ وَعاقِـلِ

---

[1] ولا يخفى عن البحث أنّ رسالة الوعي السّياسيّ الشّعريّة في قصيدتيّ النّابغة مضمّنة في قصيده الشّعريّ الّذي يصف فيه وقعة الملك، وعلى هذا درسها البحث على أنّها قصيدة وعي سياسيّ. ومفتاح التّضمين قوله (نصحت لهم، فقلت لهم)، ممّا يعلّل اقتصار نظمه على الأسلوب الإخباريّ بعيداً عن الأسلوب الطّلبيّ.

[2] الرّبرب: القطيع من البقر، وقد شبّه النّساء به في حسن العيون وسكون المشي، النّعاج: إناث البقر، دوّار: اسم موضع (سجن باليمامة)، العضاريط: الأُجراء والتُّبّاع، الأقتاب: أعواد الرّحل، الأكوار: الرّحال، حِصن: يريد حِصن بن حذيفة الفزاريّ، ابن سيّار: زياد بن سيّار، وكانا سيّدي فزارة. ديوان النّابغة الذّبيانيّ، ص76.

[3] ينظر: دلائل الإعجاز، ص173 وما بعدها. و: الفعل زمانه وأبنيته، ص201 وما بعدها. و: فلسفة البلاغة، رجاء عيد، ط2، منشأة المعارف، الإسكندريّة، 1977م، ص117–118.

[4] تُنظر قصص الغزو الّتي أشعلت جذوتها النّساء في: الكامل في التّاريخ، ابن الأثير (أبو الحسن عليّ بن أبي الكرم 630هـ)، تح: عمر عبد السّلام تدمري، ط1، دار الكتاب العربيّ، بيروت، لبنان، 1417هـ، 1997م، 322/1.

[5] العقائل: الخيار الكريمات، الرّعابيب: النّواعم البيض، أريك وعاقل: موضعان، البراغز: أولاد البقر، الصّريم: المنقطع من الرّمل، الخواذل: الظّباء الّتي تخلّفت عن القطيع، يتّصلن: ينتمين إلى قومهنّ يقُلن: يا لَبني فلانٍ مستغيثات بهم، القنان: جبال صغار، أُبير والكواثل: جبلان، الجناب وعالج: موضعان، الأذاة: ومنهم من رواها بالذّال غير المعجمة وأراد: أداة الذّار الّتي تغني صاحبها عن أن يجاور غيره ليستعين به، الشّويّ والجامل: أراد بها الشياه والجِمال، غريرات: النّساء اللّواتي لم يُجرّبْنَ الأمور. ديوان النّابغة الذّبيانيّ، ص143–144.

ج

ضَـــوارِبَ بِالأَيـــدي وَراءَ بَراغِـــزٍ حِســانٍ كَــآرامِ الصَــريمِ الخَــواذِلِ

ج

خِــلالَ المَطايــا يَتَّصِــلنَ وَقَــد أَتَــت قِنـــانُ أَبيـــرٍ دونَهـــا وَالكَوائِـــلِ

وَخَلّــوا لَـــهُ بَــينَ الجِنـــابِ وَعـــالِجٍ فِــراقَ الخَلــيطِ ذي الأَذاةِ المُزايِــلِ

وَلا أَعرِفَنّـــي بَعـــدَما قَـــد نَهَيـــتُكُم أُجــادِلُ يَومــاً فــي شَــوِيٍّ وَجامِــلِ

وَبــيضٍ غَريــراتٍ تَفــيضُ دُموعُهــا بِمُســـتَكرَهٍ يُذرينَـــهُ بِالأَنامِـــلِ

أنبأ النّابغة قومَه عن حدثٍ مستقبليّ، جاء الخبر فيه ابتدائيّاً، خاطَب المتلقي بما لم يكن يجهله (مآلات الغزو وحال السّبايا)، وقد أنزلَ الخبرُ المخاطَبَ العالِمَ بمآلاتِ الخبر منزلةَ الجاهل به الخالي الذّهن من مضمونه، وجاء فيه ما إن تأمّله السّامع ارتدع عن إنكاره الأمرَ وجهله به. ولا يخفى أنّ الخبر قد لاءم حال المخاطِب _المتَّهَم بالخروج على قبيلته ومخالفة أعرافها وتقاليدها إرضاءً لنوازعه الخاصّة ومحاباةً للملوك_ وما يصدر عنه من حالاتٍ انفعاليّةٍ[1]، فيتجاوز الخبر حدودَ الفائدة ولازمها ليعبّر في المقام الأوّل عن العناية بالحالة الانفعاليّة للمتكلّم. وأسهم ضمير المتكلّم (قلتُ لهم، لا أعرفنّ ربرباً) في إجلاء الحالة الانفعاليّة للمتكلّم في أثناء إبلاغه الخبرَ، فضلاً عن أنّه يبعث المتلقي، ويحثّه على الاستماع لمضمون النّبأ. وكان العدول عن التّكلّم إلى الإخبار في أثناء وصف حال السّبايا (لا أَعرِفَنَّ عَقائِلاً ضَوارِبَ بِالأَيدي وَراءَ بَراغِرٍ، خِلالَ المَطايا يَتَّصِلنَ، وَبيضٍ غَريراتٍ تَفيضُ دُموعُها).

وقد فارق الخبرُ المعنى المتضمَّن في الفعل اللّفظيّ وتخطى حدودَ الإخبار والتّقرير ووصف حال السّبايا إلى معنىً إضافيٍّ يكمن خلف المعنى الأصليّ الّذي يؤدّيه الفعل اللّفظيّ، ويتمثّل الفعل الإنجازيّ للخبر في استنهاض همم القوم بوساطة التّخويف من سوء عاقبة الغزو من سبي النّساء ومآلات السّبي عليهنّ. ومن المسلّم به أنّ قوة الفعل الّتي يتأتّى من خلالها معنى الإنجاز غدت لبّ النّظريّة الإنجازيّة الّتي عُرفت بها؛ إذ إنّ المتكلّم حين ينطق بقولٍ ما فهو ينجز معنىً قصديّاً، وذلك المعنى القصديّ الإضافيّ الّذي يكمن خلف المعنى الأصليّ للفعل اللّفظيّ لا بدّ أن يُحدث أثراً في السّامع، وعندئذٍ يتحقّق المنجز الكلاميّ من الخبر. ويظهر أنّ الفعل التّأثيريّ للخبر يفصح عن رغبة النّابغة في دحض التّهم المثارة حوله من خشية الملك ومحاولة استرضائه، وما ينجم عن ذلك من تجاوب القوم مع الخبر المحذَّر منه وإنصاتهم إليه، والتّنبيه على ما اختصّ به من مكانة تخوّله أن يكون ملجأً القومِ في إنقاذ أسراهم واسترداد غنائمهم وفكّ أسر سباياهم (وَلا أَعرِفَنّي بَعدَما قَد نَهَيتُكُم أُجادِلُ يَوماً في شَوِيٍّ وَجامِلِ وَبيضٍ غَريراتٍ). وهو في ذلك كلّه يصدر عن عصبيّة قبليّة تثبت أنّ الدّفاع عن القبيلة وحمايتها من الأخطار المحيطة _وإنْ اختلفتِ الآراءُ ومالتِ الأهواءُ_ واجبٌ وجوديّ وأخلاقيّ. ويُعدّ هذا الفعل التّأثيريّ أو الأثر الّذي يحدثه الفعل الإنجازيّ في السّامع بيتَ القصيد من النّظم، لأنّ الشّاعر في قصيدة الوعي السّياسيّ يقدّم رؤيته السّياسيّة لقومه، ويقف بينهم موقفَ النّاصحِ المرشدِ المقوّمِ اعوجاجَ شؤون القبيلة، ويسعى بدافع الوفاء للقبيلة

[1] انصبّ تركيز البلاغيّين في أثناء حديثهم عن الخبر على حال المخاطَب، وقد يكون الاهتمام منصبّاً في المقام الأوّل على المخاطِب وما يصدر عنه من حالاتٍ انفعاليّةٍ، فيتجاوز الخبر "حدودَ الفائدة ولازمها، وذلك في الكلام المعنيّ في المقام الأوّل بالحالة الانفعاليّة للمتكلّم، ممّا يسوّغ الحاجة إلى ضرب رابعٍ من أضرب الخبر يمكن وسمه بالخبر الانفعاليّ". خصائص التّراكيب، ص78–79. وينظر: مراجعات في النّحو العربيّ، ص90 وما بعدها.

إلى حمايتها من الأخطار الخارجيّة والتّأكيد على أنّه فردٌ منتمٍ إلى جماعةٍ يحيق به ما يحيق بهم، فإن أصابهم ضيمٌ فإنّه واجدٌ في نفسه لا محالة ما يجدون.

3- القوة الإنجازيّة للخبر في الإنباء عن حال العدو:

غدا الإخبار عن حال العدو وقوته وجاهزيتّه القتاليّة (الإبل، الخيل، الرّماح، الدّروع) وتهيّئه النّفسيّ للغزو مضموناً رئيساً وأساسيّاً في قصيدة الوعي السّياسيّ الجاهليّة، فلا تخلو قصيدةٌ من قصائد الوعي السّياسي الّتي يدرسها البحث إلّا شَغَل فيها الحديث عن حال العدو حيّزاً مهماً. ويمكن أن يُردّ ذلك إلى اعتباراتٍ عدّة؛ منها الملاءمة الدّلاليّة لمطلع القصيدة (التّبليغ السيّاسيّ)، فضلاً عن أنّ في الإخبار عن حال العدو ما ينمّ عن رغبة الشّاعر في الحفاظ على كيان القبيلة واستمرار وجودها. ويبدو أنّ في الإخبار عن حال العدو دعوةً للقوم ولفتَ أنظارهم إلى ما ينبغي أن يتّخذوه من تدابيرَ وإجراءاتٍ تقيهم سوء الأحدوثة. ويمكن أن يُردّ البحث عدمَ خوض الشّاعر في التّدابيرِ المُتَّخَذَة لتجنّب الغزو في بعض القصائد وتقديم الكلام على حال العدو على الحديث عمّا ينبغي اتّخاذه من تدابير إلى وعي الشّاعر وثقته بمقدرة القبيلة على مواجهة ما يهدّد وجودها.

ويُبلغ لقيط بن يعمر الإياديّ (380 م) قومه (قبيلة إياد) بجاهزيّة (جيش كسرى)، ويستنهض همّتهم بالتّرهيب والتّخويف من حال العدو، فيسأل قومه مستنكراً الحالَ الّتي آلوا إليها، يقول[1]:[البسيط]

أَلا تَخــافونَ قَومــاً لا أَبــا لَكُــمُ أَمسَــوا إِلَــيكُم كَأَمثــالِ الــدَبا سُــرُعا
أَبنــاءُ قَــومٍ تَــأَوَّوكُم عَلــى حَنَــقٍ لا يَشــعُرونَ أَضَــرَّ اللَهُ أَم نَفَعــا
فَهُــم سِــراعٌ إِلَــيكُم بَــينَ مُلــتَقِطٍ شَــوكاً وَآخَــرَ يَجنــي الصــابَ وَالسَــلَعا
لَــو أَنَّ جَمعَهُــمُ رامــوا بِهَذَّتِــهِ شُــمَّ الشَــماريخِ مِــن ثَهــلانَ لَانصَــدَعا
فــي كُــلِّ يَــومٍ يَسُــنّونَ الحِــرابَ لَكُــم لا يَهجَعــونَ إِذا مــا غافِــلٌ هَجَعــا
لا الحَــرثُ يَشــغَلُهُم بَل لا يَرَونَ لَهُم مِــن دونِ بَيضَــتِكُم رِيّــاً وَلا شِــبَعا

ويبدو أنّ الفعل الإنجازيّ للخبر الابتدائيّ _الّذي خرج على مقتضى الظّاهر فأُلقي إلى مخاطَب جاهلٍ بحقيقة الخبر_ قد جاوزَ معنى الفعل اللّفظيّ للخبر (الإخبار عن جاهزيّة جيش كسرى لغزو قبيلة إياد)، وتجلّت قوةُ الفعل للخبر في تجييش الشّاعر قومَه وحثّهم على الاستعداد والتّهيؤ النّفسيّ والمعنويّ لملاقاة عدوٍ يريدهم، ولن يثنيه عن تحقيق الغاية المنشودة من الغزو شيءٌ، فهو إذن يستنهض همّة القوم بوساطة الإنباء عن إصرار العدو على اجتثاث أصلهم (لا يرونَ مِن دونِ بَيضَتِكُم رِيّاً وَلا شِبَعا)، وبيان طاقتهم القتاليّة (السّرعة: أَمسَوا إِلَيكُم كَأَمثالِ الدَبا سُرُعا، الغيظ والحَنَق: تَأَوَّوكُم عَلى حَنَقٍ، القوة: لَو أَنَّ جَمعَهُمُ راموا بِهَذَّتِهِ شُمَّ الشَماريخِ مِن ثَهلانَ لَانصَدَعا، الإصرار والعزيمة: لا يَهجَعونَ إِذا ما غافِلٌ هَجَعا)، وعُدّتهم الحربيّة (في كُلِّ يَومٍ يَسُنّونَ الحِرابَ).

ويظهر أنّ معيار الصّدق والكذب لم يعد المعيار الرّئيس في الحكم على إنشائيّة الكلام أو خبريته، كما أنّ القالب اللّفظيّ لم يعد الفيصل في تمييز الخبر من الإنشاء، ويتّضح ذلك عند دراسة التّركيب ضمن السّياق الّذي ورد فيه مع مراعاة حال المخاطِب والمخاطَب. فإنباءات لقيطٍ إذن خبريّة لفظاً إنشائيّة معنىً، صورتُها الخبر وغايتها الأمرُ ودعوةُ القوم إلى التّجهُّز النّفسيّ والمعنويّ لملاقاة جيش كسرى الّذي لا يشغله شاغلٌ عن تحقيق مبتغاه.

ويعاضد فاعليّةَ الفعل الإنجازيّ للخبر، ويجلّيها إنباءُ لقيط عن حال القبيلة مقارنةً بحال العدو، يقول[2]:[البسيط]

---

[1] ديوان لقيط بن يعمر، تح: عبد المعيد خان، دار الأمانة ، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، لبنان، 1391هـ، 1971م، ص39 وما بعدها. الدّبا: صِغار الجراد، هذّته: صكّته، الشّماريخ: رؤوس تنتأ من الجبال، بيضتكم: أصلكم.

[2] نفسه، ص42 وما بعدها. الشّول: إناث الإبل قد جفّت ألبانها، الرّبع: الفصيل الّذي يُنتج في الرّبيع، بُلهنيّة: رخاء ورفاهيةً وغفلة في العيش.

وَأَنــتُمُ تَحرُثــونَ الأَرضَ عَــن سَــفَهٍ فــي كُــلِّ مُعتَمَــلٍ تَبغــونَ مُزدَرَعــا
وَتُلقِحــونَ حِيــالَ الشَــولِ آونَــةً وتَنتِجــونَ بِــدارِ القُلعَــةِ الرُبَعــا
وقــد أَظَلَّكُــمُ مــن شَــطرِ ثَغــرِكُمُ هَــولٌ لــهُ ظُلَــمٌ تغْشَــاكُمُ قِطَعــا
مــا لــي أَراكُــم نِياماً فــي بُلَهنِيَــةٍ وَقَد تَرَونَ شِهابَ الحَربِ قَد سَطَعا

وضع الشّاعر أحد المعنيين المتضادين من الآخر وضعاً ملائماً (حال العدو: لا يَهجَعونَ إذا ما غافِلٌ هَجَعا، لا الحَرثُ يَشغَلُهُم × حال القوم: أراكُم نِياماً في بُلَهنِيَةٍ، أَنتُمُ تَحرُثونَ الأَرضَ عَن سَفَهٍ وَتُلقِحونَ حِيالَ الشَولِ وتَنتِجونَ بِدارِ القُلعَةِ الرُبَعا). ويظهر أنّ التّضاد قد أبرز الجانب النّفسيّ للمرسِل وعبّر عن مدى انفعاله بالحدث وأحال على الفعل الإنجازيّ للخبر (تجييش القوم واستنهاض همهم) بعيداً عن منطق الطّلب والأمر، لأنّ للنّفوس في تقارن المتماثلات وتشافعها والمتضادّات وما جرى مجراها تحريكاً وإبلاغاً بالانفعال إلى مقتضى الكلام. فضلاً عن أنّ مثول الضّد إزاء ضده يزيد المتلقي غِبطةً بأحد الأمرين وتخليّاً عن الآخر؛ لذا كان موقع معاني المتقابلات أعظم أثراً في النّفس[1]. ويظهر أنّ الفعل التّأثيريّ الّذي ترتّب على الفعل الإنجازيّ يكمن في إشعار المتلقي بأنّ الحال الّتي كانوا عليها من غفلة ورخاء ورفاهيّة عيش وانشغال بشؤون الحياة يجب أن تُتلقّى بالمسارعة إلى التّحوّل عنها، والاهتمام والعناية بالحال الّتي ينبغي أن يكونوا عليها من خلال الإخبار عن حال عدوهم وما هم عليه من جاهزيّة قتاليّة وتهيّؤ نفسيّ للغزو. ولعلّ ذلك ما يحقّق لدى المخاطِب ثقةً باستجابة القوم إلى الخبر المحذَّر منه ويُشعر المخاطَب بأنّ هذا الأمر ممّا تجب العناية به بوساطة جمع العناصر المتنافرة.

ويفارق خوفُ النّابغة الذّبيانيّ على قومه خوفَ لقيط بن يعمر، إذ إنّ لقيطاً يستنهض همّة قومه ويحدّثهم عن حال عدوٍّ وغزوٍ يترقّبهم، في حين أنّ النّابغة الذّبيانيّ يُخبر عن حال العدوّ بعد وقوع الغزو، فيُضمّن رسالته التّحذيريّة _الّتي وجّهها إلى قومه قبل وقوع الغزو_ في قصيدةٍ شعريّةٍ نظمها بعد الوقعة، ويُثبت في القصيدة معانيَ تدلّ على أنّه استشرفها في المستقبل، ثمّ إنّها قد حدثت ووقعت. ويظهر أنّ النّابغة حين ضمّنَ قصيدته الشّعريّة رسالةَ الوعي السّياسيّ وجّه الوصفُ فيها على أنّه سيكون لا على أنّه كائن، يقول[2]:[الطّويل]

وَقَــد خِفــتُ حَتّــى مــا تَزيــدُ مَخــافَتي عَلى وَعِلٍ في ذي المَطارَةِ عاقِلِ
مَخافَــةَ عَمــرٍو أَن تَكــونَ جِيــادُهُ يُقَــدنَ إِلَينــا بَــينَ حــافٍ وَناعِــلِ
وَكُــلُّ صَــموتٍ نَثلَــةٍ تُبَّعِيَّــةٍ وَنَســجُ سُــلَيمٍ كُــلَّ قَضّــاءَ ذائِــلِ
عُلــينَ بِكِــديَونٍ وَأُبطِــنَّ كَــرَّةً فَهُــنَّ وِضــاءٌ صــافِياتُ القَلائِــلِ

[1] يُنظر: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني (684هـ)، تح: محمّد الحبيب بن الخوجة، ط2، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، 1981م، ص45.

[2] ديوان النّابغة الذّبيانيّ ، ص144 وما بعدها. صموت: درع ليّنة المتن ليسن بخشنة ولا صدئة، النّثلة والنّثرة: السّابغة، نسج سليم: نسج سليمان، وأراد بسليمان داود لأنّه أوّل من عمل الدّروع، القضض: الصّغير الخشن من الحصى، الذّائل: الدّروع الواسعة ذات الذّيل، عُلينَ بِكِديَونٍ: جُعل على ظواهرهنّ دُرْدِيّ الزّيت لئلا تصدأ، وَأُبطِنَّ كَرَّةً: ما طُليت به من دُهن أو دسم، تسحّان سحّاً: تَصُبّان صبّاً. ويقول في موضع آخر:[البسيط]

ســاقَ الرُفَيــداتِ مِــن جَــوشٍ وَمِــن عِظَــمٍ وَمــاشَ مِــن رَهــطِ رَبعِــيٍّ وَحَجّــارِ
قَرمَــى قُضــاعَةَ حَــلّا حَــولَ حُجرَتَــهُ مَــدّا عَلَيــهِ بِسُــلّافٍ وَأَنفــارِ
حَتّــى اِســتَقَلَّ بِجَمــعٍ لا كِفــاءَ لَــهُ يَنفي الوُحوشَ عَنِ الصَحراءِ جَرّارِ
لا يَخفِــضُ الــرِزَّ عَــن أَرضٍ أَلَــمَّ بِهــا وَلا يَضِــلُّ عَلــى مِصــباحِهِ الســاري

نفسه، ص77–78.

عَتــادُ اِمــرُؤٍ لا يَــنقُضُ البُعــدُ هَمَّــهُ طَلوبُ الأَعادي واضِحٌ غَيرُ خامِلِ
تَحــــينُ بِكَفَّيــــهِ المَنايــــا وَتــــارَةً تَسُــحّانِ سَــحّاً مِــن عَطــاءٍ وَنائِــلِ
إذا حَــلّ بــالأَرضِ البَرِيَّــةِ أَصــبحَتْ كَئِيبَــةَ وَجــهٍ غِبُّهــا غيــرُ طائِــلِ

جاء إخبار النّابغة الذّبيانيّ عن وقعة الغزو المستمدّة من الحاضر بوساطة الخبر الابتدائيّ، وصيغت وقعة الغزو صياغةً خاليةً من التّوكيد[1]؛ إذ إنّه لا مجال للمتلقي (قوم النّابغة) أن يسأل عنها أو يشكّ في وقوعها بعدما شَهِدَ أحداثها. ولا يخفى أنّ صيغ الحاضر_ الّتي تدلّ على وقوع الحدث لحظة التّكلّم_ كانت أقدرَ الصّيغ على تصوير الأحداث المهمّة وإبرازها وتقريرها في خيال السّامع[2]؛ لأنّها تُحضر مشهد وقعة الغزو وكأنّ العين تراها وهي تقع (يُقَدْنَ إِلَينا بَينَ حافٍ وَناعِلِ، تَحينُ بِكَفَّيهِ المَنايا، تارَةً تَسُحّانِ سَحّاً مِن عَطاءٍ وَنائِلِ). وتظهر قوة الفعل للخبر في تقرير المخاطِب الحدثَ وترسيخه في خيال المتلقي ممّا يتيح له فرصة التّأمل في الحال الّتي قد يؤول إليها القوم بعد الغزو المحذَّر منه قبل وقوعه من قبل المخاطِب (إذا حَلّ بالأَرضِ البَرِيَّةِ أصبحَتْ كَئِيبَةَ وَجهٍ)، إذ إنّ أداة الشّرط الظّرفية المستقبليّة (إذا) تدخل على ماضٍ مقلوبٍ إلى مستقبلٍ في المعنى، لاختصاصها بما هو محقّق الوقوع (تغيّر حال الأرض وما سينزل بها من مكروه غِبَّ حلول الغزو). ويبدو أنّ الأثر الّذي يحدثه الفعل الإنجازيّ (الفعل التّأثيريّ) يكمن في تنبّه المتلقي وأخذه الحيطة والحذر ممّا يُرجّح وقوعه في قادمات الأيّام. وممّا يعاضد دلالةَ الفعل الإنجازيّ والفعل التّأثيريّ للخبر عنايةُ المخاطِب بوصف عُدّة الجيش وعتاده (وَكُلُّ صَموتٍ نَثلَةٍ تُبَّعِيَّةٍ، عُلينَ بِكِديَونٍ، وَأُبطِنَّ كَرَّةً، هُنَّ وِضاءٌ صافِياتُ القَلائِلِ) وصفاته النّفسيّة والجسديّة (لا يَنقُضُ البُعدُ هَمَّهُ، طَلوبُ الأَعادي واضِحٌ غَيرُ خامِلِ، تَحينُ بِكَفَّيهِ المَنايا) على الرّغم من أنّ المقام (وقوع الغزو) يستدعي مقالاً يُوبّخ فيه الشّاعر القومَ على ما كان منهم من غفلة عن النّبأ المحذَّر منه قبل وقوعه، ويبيّن فيه مآلاتِ الحدث الواقِع وأثرَه في القوم. ويظهر أنّ ذلك أوقع في نفس المتلقي من الإخبار عن الحال الّتي آلَ إليها القوم بعد الغزو، فضلاً عن أنّ في الإخبار عن غزو جيش الملك تجديداً للتّنبيه وتذكيراً بالمحذّر منه ممّا يسهم في توعية القوم من جهة حتّى لا يقعوا في مصابٍ شبيه، ويعزّز انتماء الشّاعر القبليّ ويثبت ولاءه للقوم وصِدق عاطفته القبليّة تجاههم وصِحّة رأيه فيهم، ويبرز حرصه على سلامتهم وصيانتهم ممّا يهدّد كيانهم ووجودهم. وأبيات النّابغة الذّبيانيّ تصرّح وتؤكّد خوفَه على قومه من وقوع الغزو (وَقَد خِفتُ حَتّى ما تَزيدُ مَخافَتي)، ولعلّ ما يجلّي ذلك الخبرُ الطّلبيّ (قد خفت) الّذي خرج على مقتضى الظّاهر، فأُلقي إلى مخاطَب متردّد في الحكم مرتابٍ في صحته (قوم النّابغة)، فحَسُنَ معه التّوكيد (قد)، لدفع التّردّد والشّك والارتياب عند المخاطَب، فالمعنى اللّفظيّ للخبر الطّلبيّ يُنبئ عن خوف النّابغة من غزو جيش الملك، والخوفُ توقّعٌ للضّرر المشكوك في حدوثه[3]، وذلك الضّرر المَخشِي وقوعه قد وقع وكان الغزو. ويظهر أنّ النّابغة لم يصف وقعة الملك في قومه متحسّراً متلوّماً متندّماً، لكنّه آثر تضمين الرّسالة الشّعريّة في القصيدة الّتي قيلت بعد الوقعة مبتغياً من ذلك أموراً، منها إثباتُ الولاء للقوم وصحّة عاطفته القبليّة تجاههم وحرصه على سلامتهم ممّا يعزّز انتماءه القبليّ.

[1] يقول محمّد أبو موسى: "الأساليب الّتي تصوغ الحقائق الضّخمة صياغةً خاليةً من التّوكيد... تجدها تنفذ إلى القلوب نفاذاً ربّما لم يتهيّأ لها إذا كانت في أسلوب التّوكيد والتّقرير". خصائص التّراكيب، ص88.

[2] للتّوسع في فائدة صوغ الأحداث بصيغ المضارع، يُنظر: خصائص التّراكيب، ص264.

[3] يُنظر: الفروق في اللّغة، أبو هلال العسكريّ، تح: لجنة إحياء التّراث العربيّ، ط4، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1400هـ، 1980م، ص234.

❖ **الخاتمة ونتائج البحث:**

لعلّ أهم النتائج التي وصل إليها البحث تتمثّل في الآتي:

1- التوجيه السّياسيّ غرضٌ شعريٌّ، دافعُه الرّئيسُ حرص الشّاعر على وجود القبيلة والحفاظ على كينونتها، وتدبير أمورها وإرشادها السُّبل الّتي تجنّبها المخاطر المحدقة بها، تُبرز مضامينه دور الشّاعر التّوعويّ في القبيلة، وتُنبئ عن أهمّية الشّاعر سياسيّاً في القبيلة.

2- تعزّز قصيدة الوعي السّياسيّ انتماء الشّاعر القبليّ وتثبت ولاءه للقوم، وتُبرز حرصه على سلامتهم وصيانتهم ممّا يهدّد كيانهم ووجودهم، فيقدّم رؤيته السّياسيّة لقومه، ويقف بين ظهرانيهم موقف النّاصحِ المرشدِ المقوّمِ اعوجاجَ شؤون القبيلة، ويسعى بدافع الوفاء للقبيلة إلى حمايتها من الأخطار الخارجيّة.

3- اشتملت مضامين قصيدة الوعي السّياسيّ على إخباريّات غدت فعلاً كلاميّاً، تعدّى الخبر فيها حدودَ الإنباء والإخبار إلى الفعل والتّأثير في المتلقي. وتجلّت قوة الفعل للخبر في التّغيير وتدارُك الأمر قبل وقوعه.

4- ظهر أنّ القالب اللّفظيّ لم يعد الفيصل في تمييز الخبر من الإنشاء، فقد أُنزل الخبر في مضامين قصيدة الوعي السّياسيّ الجاهليّة منزلة الإنشاء، فكانت مضامين القصيدة التّوعويّة خبريّة لفظاً إنشائيّة معنىً، صورتُها الخبر، وغايتها الأمرُ ودعوةُ القوم إلى التّجهُّز النّفسيّ والمعنويّ لملاقاة الجيش والغزو المرتقب.

5- ظهر الخبر في قصيدة الوعي السّياسيّ الجاهليّة في مضامينَ يُحذّر فيها الشّاعر من سوء الأحدوثة ومغبّة الغزو، وقد أثبت الشّاعر في مطلع قصيدة الوعي السّياسيّ فحوى الرّسالة السّياسيّة، فأخبر فيها عمّا سيكون من وقائعَ، وتجلّى الفعل الإنجازيّ للخبر في تحذير القوم من سوء الأحدوثة بدافع الحفاظ على وجودهم من الخطر المحدق بهم. وبيّن الفعل التّأثيريّ للخبر رغبةَ الشّاعر في تجاوب قومه مع الخبر الملقَى إليهم لتجنّب الخطر المحدق بهم. ومبعث ذلك كلّه إدراك الشّاعر دورَه التّوعويّ في القبيلة والمهام المنوطة به تجاه قومه.

6- تخطى الخبرُ حدودَ الإخبار والتّقرير في وصف حال السّبايا إلى معنىً إضافيٍّ يكمن خلف المعنى الأصليّ الّذي يؤدّيه الفعل اللّفظيّ، وجسّد الفعل الإنجازيّ للخبر رغبة الشّاعر في استنهاض همم القوم بوساطة التّخويف من سوء عاقبة الغزو من سبي النّساء ومآلات السّبي عليهنّ. وأفصح الفعل التّأثيريّ للخبر عن رغبة في تجاوب القوم مع الخبر المُحذَّر منه وإنصاتهم إليه، والتّنبيه على ما اختصّ به الشّاعر من مكانة تخوّله أن يكون ملجأً القومِ في ملمّات أمورهم. وهو في ذلك كلّه يصدر عن عصبيّة قبليّة تثبت أنّ الدّفاع عن القبيلة وحمايتها من الأخطار المحيطة واجبٌ وجوديّ وأخلاقيّ.

7- تجلّت قوة الفعل للخبر في الإخبار عن حال العدوّ في استنهاض همّة القوم وحثّهم على الاستعداد والتّهيؤ النّفسيّ والمعنويّ لملاقاة عدوٍ يريدهم، ولن يثنيه عن تحقيق الغاية المنشودة من الغزو شيءٌ، فكان الإنباء عن إصرار العدو على اجتثاث أصلهم، وبيان طاقتهم القتاليّة.

❖ **ثبت المصادر والمراجع:**

1- آفاق جديدة في البحث اللّغويّ المعاصر، محمود أحمد نحلة، دار المعرفة الجامعيّة، القاهرة، 2002م.

2- أدب العرب في عصر الجاهليّة، حسين الحاج حسن، ط3، المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، 1417هـ، 1997م.

3- الأوائل، العسكري (أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل 395هـ)، ط1، دار البشير، طنطا، 1408هـ.

4- الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني (محمّد بن عبد الرّحمن جلال الدّين الخطيب 739هـ)، تح: محمّد عبد المنعم خفاجي، ط3، دار الجيل، بيروت، د. ت.

5- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، عبد المتعال الصّعيدي (1391هـ)، ط17، مكتبة الآداب، 1426هـ، 2005م.

6- البيان والتّبيين، الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر 255هـ)، تح: عبد السّلام محمّد هارون، د. ت.

7- تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرّافعي، دار الكتاب العربيّ، د. ت.

8- تاريخ الشّعر السّياسيّ إلى منتصف القرن الثّاني، أحمد الشّايب، مكتبة النّهضة المصريّة، القاهرة، 1945م.

9- التداوليّة عند العلماء العرب "دراسة تداوليّة لظاهرة الأفعال الكلاميّة في التّراث اللّسانيّ العربيّ"، مسعود صحراوي، ط1، دار الطّليعة، بيروت، 2005م.

10- الجملة الخبريّة ودلالاتها البلاغيّة عند الكلاميّين، خليل رشيد فالج، مجلّة آداب الرّافدين، 1397هـ، 1977م.

11- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشميّ (1362هـ)، تدقيق: يوسف الصميلي، المكتبة العصريّة، بيروت، د. ت.

12- خصائص التّراكيب "دراسة تحليليّة لمسائل علم المعاني"، محمّد محمّد أبو موسى، ط4، مكتبة وهبة، القاهرة، 1416هـ، 1996م.

13- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تح: محمود محمّد شاكر، ط3، مطبعة المدنيّ، القاهرة، 1992م.

14- دلالات التّراكيب "دراسة بلاغيّة"، محمّد محمّد أبو موسى، مكتبة وهبة القاهرة، 2004م.

15- ديوان لقيط بن يعمر، تح: عبد المعيد خان، دار الأمانة ، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، لبنان، 1391هـ، 1971م.

16- ديوان النّابغة الذّبيانيّ (زياد بن معاوية بن ضباب بن جناب ت 604م)، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، ط2، دار المعارف، د.ت.

17- الشّعر والشّعراء، ابن قتيبة (أبو محمّد عبد الله بن مسلم 276هـ)، دار الحديث، القاهرة، 1423هـ.

18- الطّراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي (745هـ)، ط1، المكتبة العصريّة، بيروت، 1423هـ.

19- العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني (أبو علي الحسن 390- 456هـ)، تح: محمد محيي الدّين عبد الحميد، ط5، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1401هـ، 19981م.

20- الفروق في اللّغة، أبو هلال العسكري، تح: لجنة إحياء التّراث العربيّ، ط4، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1400هـ، 1980م.

21- الفعل زمانه وأبنيته، إبراهيم السّامرائي، ط2، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، 1400هـ، 1980م.

22- فلسفة البلاغة، رجاء عيد، ط2، منشأة المعارف، الإسكندريّة، 1977م.

23- القوة الإنجازية للأفعال الطّلبيّة في عينيّة لقيط بن يعمر الإيادي "الأمر والنّهي أنموذجاً"، وناسة كرازي، مجلة العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة، جامعة باتنة، ع36، جوان، 2017م.

24–مراجعات في النّحو العربيّ، محمّد عبدو فلفل، وزارة الثّقافة، الهيئة العامّة السّوريّة للكتاب، 2018م.
25– مفتاح العلوم، السّكاكي (يوسف بن أبي بكر بن محمّد بن عليّ 626 هـ)، علّق عليه: نعيم زرزور، ط2، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، 1407هـ، 1987م.
26–المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد عليّ (1408هـ)، ط4، دار السّاقي، 1422هـ، 2001م.
27–منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجنيّ (684هـ)، تح: محمّد الحبيب بن الخوجة، ط2، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، 1981م.
28– نظرة في منزلة الشّاعر العربيّ قبل الإسلام وبعده، وديعة طه النّجم، مجلة الآداب، جامعة بغداد، ع9، 1996م.
29–نظريّة أفعال الكلام العامّة "كيف ننجز الأشياء بالكلام"، جون لانكشو أوستن، تر: عبد القادر قينيني، إفريقيا الشّرق، الدّار البيضاء، 1991م.
30–نظريّة الأفعال الكلاميّة بين فلاسفة اللّغة المعاصرين والبلاغيّين العرب، طالب سيّد هاشم الطّبطبائي، مطبوعات جامعة الكويت، 1994م.